This item is provided to support UOB courses.

Its content may not be copied or emailed to multiple sites or posted to a listserv without the copyright holder's express written permission.

However, users may print, download, or email it for individual use for learning and research purposes only.

هذه الوثيقة متوفرة لمساندة مقررات الجامعة.

ويمنع منعا باتاَ نسخها في نسخ متعددة أو إرسالها بالبريد الالكتروني الى قائمة تعميم بدون الحصول على إذن مسبق من صاحب الحق القانوني للملكية الفكرية لكن يمكن للمستفيد أن يطبع أو يحفظ نسخة منها لاستخدام الشخصي لأغراض التعلم والبحث العلمي فقط.

تصميم الغلاف جرير
د. شعيب حليفي
الرحلة في الأدب العربي
التجنس .. آليات الكتابة .. خطاب المتخيل

لم يفتأ النص الرحلي يطرح أسئلته المتفاوتة ، ويحيل على انتسابات مفتوحة تخص الأدب والمدونات التاريخية والجغرافية والتراجم والمناقب وغير ذلك من أشكال كتابية ، وما حقّقه هذا النص من تراكم ضمن دائرة الأدب وإفادة من حقول أخرى ، واستيلاد أسئلة شتى فنية ومعرفية .

وتندرج **رسالة ابن فضلان** في خانة الأشكال الرحلية القديمة المنجزة في القرن الرابع للهجرة (921 م) ، تضمنّت عدة مكونات وعناصر ذات حضور ومشدودة إلى مرجعية وخطاب ، تحقق إدراكًا غير موحد للواقع والأشياء ، مستندة على عدة سبل لتبليغ هذا الإدراك وإنجاز الرسالة - التقرير في شكل رحلي متصل بالأشكال الحكائية والاجتماعية الأخرى لتحقيق نص رحلي أدبي[1] رغم ما

(1) «وهو على إيراده الأرقام والأعداد في ذكر التواريخ والمسافات والأبعاد والأيام، لا يبتعد عن أسلوب الأديب ولا يتقرب من أسلوب الجغرافي . فلا نرى له=

تشوبه من تقريرية وتاريخية وإدراك واضح للتجربة ونزوعها نحو التخييل ، فاكتسب التزاما بنوع الرحلة - التقرير ، وتحررًا- في آن - تبلور في بناء مرآتي في البعد الفني ، وتواصل واضح بين الذات والآخر عبر مكونات وعناصر عامة ، وإن كان النص لم يسجل مباشرًا لمذكرات الرحالة وإنما مذكرات الرحلة لكونها سفارةً وانتدابًا لمهمة ذات طبيعة دينية سامية مبكرة لبلاد غير إسلامية ، كان تدوينها كنزًا للمؤرخين والجغرافيين العرب قديمًا ، وغير العرب حديثًا ، فنقلت كاملة ومستفرقة في مؤلفات تواريخ البلدان

= ذكرا لدرجات الطول والعرض ومواقع البلدان ، ودرجات الحرارة وموازنة الأقاليم بعضها ببعض كما يصنع الجغرافيون . ويعتمد في حكايته للأحداث التي مرت به والأشخاص الذي لقيهم على المحاورة المباشرة ، كقصة كتبت لأيامنا . . .»

من مقدمة المحقق سامي الدهان ، رسالة بن فضلان ، ص . 28 - 29

والمسالك والممالك ، فيما لم يلتفت الأدب إليها رغم ما تتوفر عليه من بنية تخيلية ضمن تيارات خفية للعجيب والغريب في صورة الآخر.

أ- سردية المكونات:

يتموقع نص رسالة ابن فضلان في مسار رحلي سفاري يتضمن عدة تحويلات وانتقالات وتفاعلات غذّت البنية التخيلية وساهمت في إعداد بناء رحلي بمقومات وانتساب منفتح عبره يتشكل السرد من مفاصل مترابطة في سلسلة من حلقتين:

ماقبل الرحلة: وصول رسالة من الآخر (ملك الصقالبة إلى الخليفة المقتدر بالله يطلب منه أن يبعث إليه من يفقّهه في الدين وشرائع الإسلام وبناء مسجد وتنصيب منبر للدعوة وبناء حصن تحصينا من المخالفين .

وقد تمثل جواب المقتدر بالله في سفارة من سوسن الرسي وتكين التركي وبارس الصقلابي، ثم ابن فضلان الذي تكلّف بقراءة الكتاب وتسليم الهدايا والإشراف على الفقهاء والمعلمين .

الرحلة: وتتضمن العبور والوصول بدءاً من مدينة السلام إلى فارس ، بخاري ، الجرجانية ، الغزية ، البنجاك ، الباشغرد ثم الصقالبة ، الروسية والخزر .

مراحل شهدت نسيجا من الأسفار الممتدة عبر البر والأنهار وما تخللها من مآزق وعذابات.

ويضم هذا الإطار العام كل الأحداث والمرويات في شكل تقرير يسرد المراحل الجغرافية وسط فضاءات للعبور ، متوقفا في مواقف بقصد حكي المحن والمصادفات ، أو بعض المشاهدات المثيرة لانتباهه ، ثم المهمة التي انتدب لأجلها .

إن رحلة ابن فضلان تجربة من داخل سفارة وبالتالي فهي لا تجيب عن رؤية أو مشروع أبستمولوجي ، وإنما على رغبة في تقرير على الأقل حول أرض جديدة وعلى غرائبيتها وخصوصية عجائبها[1] ، ضمنها مهمة دينية ذات بُعد يستحق التأريخ ونقل السفارة في تقرير تحول إلى تجربة ثم إلى تذكرات ؛ ومن هذا المنظور ، فإن النص الرحلي يتضمّن مجموعة من المكونات الصغرى والكبرى التي تبلور الرؤية وتنتج الرحلة داخل الحلقات والمفاصل المكونة للرسالة ، ويمكن فرز أربعة عناصر مهيمنة هي السفر والسرد والوصف والخبر في مرحلة أولى تمثل شعرية متصلة بالأدب وتتماس ، متقاطعة ، مع تيارات الحقول الأخرى.

1-أ- يحقق السفر في رسالة ابن فضلان وضعيات متتالية لصورة الارتحال فيصبح محركًا فاعلاً ومنتجًا للحكي بعدما كان الحكي هو الوسيلة الأولى لزند السفر ؛ كما يولّد التنوع من خلال تعدد استعمال الأفعال الخاصة بالسفر على امتداد قرابة مئة عرفت

(1) Marie Christine, Proffet, real ouellet: la figure du Voyageur Missionnaire, p. 95; in Revue des Sciences Humaines (R. S. H.) No. 245, Janvier - Mars 1997.

عدة انتقالات في اتجاه واحد محدد عبر نقط متعددة ومختلفة ، مما أفرز – على الأقل – بنيتين من السفر : الأولى سفر يجسد العبور السريع مع توقف قصير للاستراحة ودون ذكره للمشاهدات أو الانطباعات ، وهو ما كان بالنسبة للمراحل الأولى من الرحلة ، إلى حين وصولهم بخارا ؛ وهي بنية اختزالية ، سريعة مقابل البنية الثانية من السفر وهي الموسعة الحافلة بالأحداث ذات التوتر والإنتاجية.

إن السفر بنية وإطار ضروري لتناسل الفعل وامتداده ، بتحكم فاعل من أفعال الرغبة والخوف والأمر والتردد والبحث والتعلم والتعليم والمهمة ... مما خلق خطية ببناءات نسجت لِحْمَة الرحلة الداخلية بين المعرفة والمتعة : معرفة بالمشاهداتْ غير المألوفة ، المتصلة باليومي والاجتماعي والسلوكي والديني ؛ ومتعة الحكي عن التجربة وسلطة الديني.

1-2- أما سردية الرحلة في الرسالة فهي للعبور والوصول دون تحقق الدائرية التي تصف الرجوع بكل مراحله ومشاهداته باعتباره جزءًا من الرحلة.

ولأن النص هو تقرير عن السفارة ، فإن المهمة والهدف هما الأساس المهيمن اعتبارًا لما يسرد من وقائع المهمة الخاصة ، لذلك فالنص هو شكل نصف دائري أنتج وعيا لا مكتملا بالرحلة واكتفى بسرود تضمنت معلومات وآراء وتعليقات تخص أساسًا ، الآخر في أشياء محددة ، مما شكّل عدة بنيات متلاحمة تعكس

خطية كلاسيكية تخبر بكل ما يتعلق بالمهمة والأحداث المصاحبة لها أو التي كانت قبلها وترتبط بها.

فالطابع السفاري الذي هيمن على الرحلة ، جعل السرد يفقد بعض خصوصياته فلا يجئ سردًا اعترافيًا يبوح بالحنين ويؤطّر التذكرات بالذات ويحرر السرد ، وإنما هو سرد تقريري ببعض العموميات والخصوصيات البعيدة عن الذات والمتجهة – جلها – نحو الآخر .

وقد كان بإمكان السرد أن يكسر الخطية ويتجه في خطوط هي نسيج متواز من التقاطعات السردية المشكّلة لسلاسل كاملة من الحكي في تجربة رحلية استغرقت أحد عشر شهرًا ذهابًا.

وتعتمد الاستراتيجية السردية في رحلة ابن فضلان على الخطية لخلق سياق استقطب قطبي الحكي والتأريخ ، عَبْرَهُما توجد المتعة الفنية من خلال الحوارات المتولّدة عن السرود والأوصاف .

وهكذا ، فإن هذه الاستراتيجية جاءت مقطرة لم تعتمد العديد من الأساليب الرحلية وإنما تضمنت سردا للمشاهدات وبعض المسموعات من حوارات مع حذوف وتلخيصات ملازمة أعطت للسرد طابع الانتقائية . وأيضًا في الحوارات – عبر الترجمان – وكلها تضيء سرودًا تخص الآخر والبُعد الاجتماعي.

1-3- نهج ابن فضلان سبيلاً مزدوجًا في الوصف لم يلجأ إليه إلا في حالات قليلة حينما أصبح السرد متشرًا يلتقط

مشاهداته ، بينما كان حريصًا باستمرار على استبعاد الأوصاف والصور التي تضيء ذاته ، من ثم فإن شبكة الوصف المتوفرة في الرسالة تغيّب الأوصاف الحنينية والتذكرية وتستحضر المشاهدات وكل ما هو خارجي.

وقد قام الوصف بدور حيوي في تنشيط السرد وتحقيق الانتقالات المهمَّة في الرحلة ، خصوصًا في لحظة العبور الأولى المتسمة بِشُحٍّ في المعلومات ، لم يبدأ الحكي بشكل منتج إلا حينما بدأ تشغيل الوصف بموازاة وتناوب مع السرد.

وتمثلت الأوصاف الواردة في ما رآه الراوي - الرحالة ، بشكل محدود ، سواء في تصوره المزدوج للشخصيات التي التقاها وتعرف عليها بحكم مروره عليها ، أو شخصيات توجه إليها مباشرة ضمن سفارته . وقد كان تصويره لها مرتبطًا بالاجتماعي من خلال مظاهر الحياة الاجتماعية أو من خلال السلوك الداخلي - النفسي.

وإذا كان حضور الوصف متواترا ببعض المُشاهدات المتعلقة بالحياة اليومية ، العامة والخاصة لساكنة تلك المناطق ، العابر منها أو المنتقل إليها - من عوام وملوك وجنود - حول النقود ، والألبسة ، والأكل ، والعنف ، والمعاملة ، والموت ، وتحوّل الليل والنهار ، وتقاليد أخرى ، فإن ابن فضلان لم يلجأ إلى الأسلوب الجغرافي ليصف المسالك والعمران وإنما اكتفى بالإشارة والتصريح بالمحن التي لاقاها جرّاء أحد عشر شهرًا من المسير والمعاناة من الطبيعة والأنهار أو من بعض ممن لقيهم.

كما يؤدي الوصف في الرسالة وظيفة محددة ، باعتماده على فعل الرؤية بالعين والحوار المباشر والمنقول ، فجاءت الصور يقينية أكثر منها احتمالية ، ومتجذّرة في المشاهدات فتتحول الأوصاف من انطباعات وتأملات إلى إخبار بحقائق وعجيبة وغير مألوفة .

4-1- يختار ابن فضلان طريقة في تقييد الخبر ، سالكًا سبيل إيراد ما رآه وسمعه بنفسه لصياغة الخبر اليقين - كما يعرفه ابن وهب الكاتب[1] - بعيدًا عن الشك والاحتمال.

فما ينقله الراوي - الرحالة هو عبارة عن تجارب الغير - وقائع وقعت له وللجماعة أثناء الانتقالات - والمتمثلة في حكايات صغرى تتفرع عن العبور أو الوصول . وهكذا يصبح الخبر أنواعًا ضمن النسيج العام لرسالة ابن فضلان بالإضافة إلى الأخبار الخاصة والأخرى العامة ؛ فهناك خَبر التحذير الذي يتكرر ليفيد الحيلة والإنجاز:

«فلما سمعتُ كلام عبد الله بن باشتو وكلام غيره يحذرونني من هجوم الشتاء رحلنا من بخارا راجعين إلى النهر» (ص 80).

أو يرد للتحذير فعليا من قساوة الطبيعة ، بينما يجيء في سياقات تالية على لسان ابن فضلان تجاه الآخر ، خصوصًا ما تعلق بالدين . وهذا النوع من الأخبار دينامي يصف الصدام ويقدّم

(1) ابن وهب الكاتب ، البرهان في وصف البيان. القاهرة ، مكتبة الشباب ، مصر 1969 ، ص. 76 - 78 ، تقديم وتحقيق : حنفي محمد شرف.

المعرفة ، وقد تضمن الحوارات ، كما عاش الحكايات المتعلّقة بالمحن التي لاقاها أثناء العبور وأداء المهمة في الوصول ، وهو الخبر - الدرس المتضمن للتحذير بقصد إنجاز طقوس ومراسيم خاصة أثناء قراءاته للرسالة وتعليم ملك البلغار كيفية الدعاء من المنبر أثناء الخطبة[1] .

نوع آخر من الأخبار المتعلقة بما هو ثابت من مشاهدات رآها فأوردها مع غياب أخبار التراجم والأخبار المستقاة من مؤلفات الجغرافية والتاريخ والاكتفاء بالرؤية والسماع المباشرين :

«ولقد بلغني أنّ رجلين ساقا اثني عشر جملاً ليحملا عليها حطبا من بعض الغياض فنسيا أن يأخذا معهما قدّاحة وحرّاقة وأنهما باتا بغير نار ، فأصبحا والجمال موتى لشدة البرد.

ولقد رأيتُ لهواء بردها بأن السوق بها والشوارع لتخلو حتى يطوف الإنسان أكثر الشوارع والأسواق فلا يجد أحدًا ولا يستقبله إنسان ، ولقد كنت أخرج من الحمام ، فإذا دخلت إلى البيت نظرت إلى لحيتي وهي قطعة واحدة من الثلج حتى كنتُ أدنيها إلى النار» (ص. 84 - 85) .

يرد الخبر بهذا النوع للإخبار بأساس الحكاية في هذه الرحلة ، وهي المعاناة من الثلج والتقلبات الجوية والنهرية ، بحسب ما بلغه من خبر مسموع لم يعشه وإنما سيروي ما يماثله ويُزكّيه.

(1) رسالة ابن فضلان ، انظر صفحات 114 - 115 - 117 - 118.

لذلك فإن الخبر هو الإدراك والتجربة بالاعتماد على السند باعتباره فعلاً إنتاجيًا للأخبار بصيغة ما ، ولم يرد لديه مرجعا يستند إليه من المؤرخين أو من الجغرافيين أو ممن لقيهم . وإنما كلما أورد سماعا معينا أو ما يوازيه أحاله على الغائب والنكرة من قبيل: (ولقد بلغني . وأمرنا من كنا نأنس من أهل البلد ، وسمعتهم يقولون . وقال بعضهم . . .) وبهذه الطريقة يتحول الخبر عند ابن فضلان إلى مصدر ويقين وسند يعتمده المؤرخون لوصف أحوال تلك البلدان باعتباره المصدر الوحيد الذي زار وقيد مشاهداته في تلك البلدان وفي تلك الفترة .

ويمكن اعتبار الفعل الابتدائي المحرك للخبر هو السند الوسيط في تقوية حضور الخبر وإعطائه نكهة مميزة ، فبنية الأفعال المحركة للجمل تتألف من أفعال الانطلاق وأفعال التجسير وجُلّها يقوم بوظيفة الربط وتحقيق الإدراك واليقين فضلاً عن حضور الأفعال الحسية - الدينامية ذات البعد التفعيلي للحكي والمتحكّم في المعجم العام وما يحفل به من مفردات أعجمية مدمجة طبيعيًا كما هي ضمن المعجم العربي تتفاعل وتؤدي وظيفة هذا «التعدد اللغوي» المكتسب لخلق تَواصل ممكن ، ذلك أن «قدرة الكلمة الواحدة على التعبير عن مدلولات متعددة ، إنما هي خاصية من الخواص الأساسية للكلام الإنساني»[1] ، وقد استعمل ابن فضلان

(1) ستيفان أولمان ، دور الكلمة في اللغة . القاهرة ، دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع ، الطبعة 12 ، 1977 ، ص. 134 ، ترجمة وتقديم وتعليق كمال بشر .

في معجمه سجلات متفاعلة ومتكاملة فيما بينها لتحقيق القصد العام.

إن مجيء الأفعال بصيغة «النحن» حينا ، وبصيغة المفرد حينا آخر ، يخلق توازنا في السرد الرحلي السفاري الذي يحك مراحل الرحلة – السفارة أساسًا ، فلا يحتاج الراوي أن يعبر عن بعض رؤاه وتأملاته واستيهاماته أحيانًا إلا حين يجنح بالسرد إلى الإخبار عن الآخر وعن بعض محن السفر ، أو حين يوظّف أفعالاً من قَبِيل رأيتُ ؛ أو ينخرط في حوارات مع الآخر عبر الوسيط بلغة تلعب دورها الاستراتيجي في كل تجلياتها . ورغم ذلك ، فالبناء اللغوي عند ابن فضلان هو عَالَم هندسي لإيجاد حقائق وتأكيدها، ومن ثَمَّ «تعتبر اللغة أداة صلبة يستعصي اقتحامها ، فلا تسمح لنا «بقول شيء» دون نقل موقف من هذا الشيء حين نتكلم أو نكتب، فالكلمات أو الجمل التي نختار ترجع الصدى لمستمعينا أو قرائنا وتصدر مغازي ممكنة»[1] ، وهو البعيد الذي يمكن النظر من خلاله إلى التركيب الأسلوبي العام للرحلة.

2- الرحلة والتجربة:

لكل رحلة آثار في الواقع والنفس ، وطريقة خاصة للإدراك وخلق المسافة مع هذا الواقع ، فتتحول الرحلة بكل أسرارها

(1) روجر فاولر ، اللسانيات والرواية . الدار البيضاء ، دار الثقافة ، ط1 ، 1997 ص. 98 ، ترجمة لحسن أحمامة عن مؤل: Rogre Fowler: Linguistics and the Novel, Methuen, London, 1983.

ومعطياتها إلى تجربة تكتنز تجارب متفرقة ، ضمنها معطيات وآراء ومسبقات . وبين الرحلة والتجربة يحضر الراوي في بعده الذاتي بصفته متلقيا وراويا لهذه التجارب من بينها تجربته المنصهرة باعتبار أن الرحلة تؤشّر لشكل الحياة – بتعبير جان كلود بريخت[1] – ولشكل الكتابة أيضًا . كما يحضر الآخر في بُعده المغاير ثم الأمكنة وهي فضاءات للتجربة وتفاعل بُعد الذات بالآخر .

1-1- بُعد الذات: يجسد الراوي في هذا القطب الأوامر والرؤى والمشاهدات التي عاشها ، وهو رحالة ، في نص رحلي ذي بناء واضح يتضمن معطيات وبنيات تخييلية من خلال حضور الذاكرة التي انتقت تفاصيل وأحداثًا وحواراتٍ في مسيرة دامت أحد عشر شهرًا.

إن التجربة التي يصوغها الراوي هي التحقق الفعلي للحقائق المادية المتصلة بالمتخيل المتجسد في الكتابة عبر الانتقاء والتحويل والتعديل والحجب والإضافة ، لذلك فبُعد الذات الراوية لا يطابق – بالضرورة – ذات الرحالة التي عاش متنديا في مهمة القراءة والإهداء والإشراف ، من هنا فإن تأمل حضور الضمير في النص يكشف عن هذه المسافة وتجليها ، فـ «قانون الجماعة» هو الذي يفتتح الحكي ويقوده لمدة طويلة قبل أن يطفو ضمير المتكلم بعد الاستئناس بالأنا داخل «النحن» ، والتذويت الذكي لهما في

(1) Revue des sciences humaines (R. S. H.), No 245, janv. mars 1997, p. 130.

البداية إذ يرتبط ضمير المتكلم الجمع بأفعال سفر العبور والارتحال دون التوقُّف ، في حين سيبرز ضمير المتكلم المفرد المُعبِّر عن ذات الرحالة في بخارا مرتبطا بفعل الرؤية ثم الوصف .

إنَّ الضمائر في رحلة ابن فضلان هي وسائط دالة للتنويع وتأكيد جنس الرحلة وخلق التراوح الممكن بين الذات الجمعية والذات الفردية له باعتباره ممثلاً للخليفة وللجماعة ثم لنفسه؛ فقد تحدث في حواراته وهو فقيه ومسؤول من طرف المقتدر بالله ، وحكى ما رآه واصفا ومعلِّقا من منطلق كونه رحَّالةً مُسْلِمًا ، وكأن الرحلة التي هي مدرسة للتجارب[1] في نهاية المطاف ، تقرير ثَمَّ إنجازه لهذه النحن والأنا ، مختطًا أسلوبين متوازيين : أسلوب الأديب الواصف ويعتمد الإيجاز بدون تكلف ؛ وأسلوب الفقيه الواعظ ، فلا غرابة أن يكون الأسلوب والضمير في نفس الكفة لتأدية مدلول واحد :

«ونزلنا مع الملك منزلا ، فدخلت أنا والصحابي تكين وسوسن وبارس ، ومعنا رجل من أصحاب الملك بين الشجر فرأينا عودًا صغيرًا أخضرًا» ص. 128 .

ويغدو التراوح بين الأسلوبين تشكيلاً لمسافة ضرورية تنضد التجربة وتضطلع برسم الأوعاء وإدراك الأحاسيس المرافقة في كل

(1) Normand Doiron: **L'art de Voyager, le déplacement à l'âge classique**, Québec, les presses de l'Université Lavale, Paris, Klincksieck, 1995.

الرحلة ، والتي يعبر عنها الراوي باسمه ونيابة عن مرافقيه : الخوف ، والفزع ، والتعجب ، والدهشة ، والحيرة . . . وهي مشاعر مختلفة تختزن تعليقًا وموقفًا من المشاهدات وبالتالي توجيهًا، فالمسافة بين الرحالة والراوي فنية بالأساس تدفعه لأن «يبني أثره بطريقة تملي «الوضع الرائي» الذي يتعين على المشاهد تَبَنِّيه على نحو متناظر مع النصوص الأدبية ، وعلى المؤلِّف توجيه نفسه وقارئه في ما يتعلق بمضمون عالمه المتمثل {. . .} ويتضمن هذا التوجيه تموضعا في المكان والزمان ، قد يبدو المؤلف أو راويه بعيدًا أو قريبًا جدًا ، محررًا لمادة تاريخية أو شاهد عيان»[1] .

يحضر راوي الرحلة قويا في مواقع محددة مع الوصف والحكي والحوارات سالكا ثلاثة سبل في الحديث : الرؤية والسماع من الآخر ثم المزج بينهما في الحوار مع إدراك أهمية حضور الترجمان الوسيط في نقل وترجمة المحاورات ، بدليل أنّ مِنْ مرافقيه من يعرف الروسية واللغات التركية ، كما يتمثل عبر ثنايا الرحلة من خلال أوصاف ضمنية أو صريحة من قبيل : (كان شديد الإيمان بالله . عظيم التمسك بدينه وأخلاقه وتقواه . ، لا يخون الأمانة . ينهي عن الفواحش ويأمر بالمعروف . يتقزز من الأوساخ . يرهبه رؤية النساء عاريات . يرتجف لسماع أسئلة الكفر والشرك) .

(1) روجر فاولر ، **اللسانيات والرواية** . الدار البيضاء ، دار الثقافة ، ط1 ، 1997 ، ص 95 ، ترجمة لحسن أحمامة .

تبرز هذه المعطيات المشكلة لصورة الراوي - الرحالة مقومات الذات الإسلامية في أبعادها عند ابن فضلان الفقيه والأديب والسفير.

2-2- بُعد الشخصية والآخر، ويتحقق صورًا متشكلة في رسالة ابن فضلان لاستعراض الرؤى والأوعاء . وحضور ثنائية المسلم والكافر متجلية بين الذات والآخر والأوصاف التي ألصقها به من خلال رصد بعض عاداتهم وتقاليدهم في الزواج والموت والتوحش وعدم الاحتشام ، فيرجع كل ذلك إلى ما هم فيه من كفر .

وإذا كان النص الرحلي لابن فضلان لم يعرف اتجاهًا نحو المناقب أو نحو سرد حيوات من لقيهم أو شخصيات تاريخية مستعادة ، فمردّ ذلك أن الرحلة هي سفارة لا تتطلب هذا النوع من التخليلات من جهة ، ثم عدم معرفته بلغات البلدان التي عبرها من جهة ثانية ، بالإضافة إلى الإحساس بالتفوق العربي الإسلامي على الآخرين ، من هذا المنطلق فإن المرافقين لابن فضلان يتم نعتهم بصفاتهم الأولى قبل إسلامهم (سوسن الرسي ، تكين التركي ، بارس الصقلابي) أو بصفاتهم العملية الموكولون بها في السفارة : الفقيه ، المعلم والغلمان . . . فلا دور لهم باستثناء ما جاء من حديث عن أحمد بن موسى الخوارزمي الذي كان منتظرًا أن يلحق بهم ويتسلم ما أوصي به من الفضل بن موسى النصراني وكيل ابن الفرات ، لكنه اعتقل لتفويت الأمر عليهم وعلى السفارة، وامتداد ذلك في حوارات مع ملك الصقالبة .

وقد تحدث أيضًا عن ملوك وجنود وشخصيات ذات نفوذ في البلدان التي مر منها بينما كان يحكي عن أشخاص حدثوه عن أمر، أو حاورهم في شيء ، أو يصفهم للتمثيل لشيء عجيب أثار انتباهه دون أن يذكر أسماءهم أو صفاتهم ، وإنما يشير إليهم بضمير الغائب أو المجهول أو بتعبير : «فلان ، فلانة ، الرجل ، المرأة. . .» .

لم يكن اهتمام ابن فضلان بالآخر في رحلته بشكل مباشر ، وإنما عبر سرد مشاهداته للامألوف والغرائبي في السلوك الحياتي، وفي الممارسات الطقوسية المشكلة لصورة الآخر خصوصًا في أربعة مواقع هي بلاد الترك والخزر والصقالبة والروس ثم صورة الآخر من خلال سُلطته العليا السياسية والدينية .

إن الآخر هو المغاير الذي وصفه بالتَوَحش لتأكيد رؤيته الثنائية لبلاد السلام وبلاد الكفر ، في حين يمكن لهذا الآخر المغاير أن يصبح مماثلاً في حال إسلامه وتقيّده بمواصفات وضوابط المسلم ؛ وفي اصطحاب ابن فضلان لثلاثة من المسلمين غير العرب دليل على التعايش .

2-3- بُعد الفضاء، حيث تمر مسارات الرحلة عبر الأمكنة بأزمنتها وبأحداثها ، مما يجعل المكان الأكثر دينامية تجربة متنوعة ؛ وقد كان ابن فضلان أشد حرصًا على تقييد أسماء الأماكن من بلدان ومدن وقرى وقبائل ورباطات ومنازل ومفازات وأنهار . . . واختيار دليل اهتم له كثيرًا وقال فيه : «واستدف أمر القافلة ،

واكترينا دليلاً يقال له قلواس ، من أجل الجرجانية ثم توكلنا على الله - عز وجل - وفوضنا أمرنا إليه» ، ص. 88 .

إن بُعد المكان في الرحلة فضاء متعدد التجليات ، الانطلاق فيه من مدينة السلام (بغداد) والعبور عبر عدة نقط عربية وأجنبية قبل الوصول إلى المدن الكبرى التي سيتوقف عندها ، فهناك أمكنة عبور فارغة من أية دلالة ، يعتبرها ابن فضلان فقط جسرًا يتوقف عنده من أجل الاستراحة والتزوّد ، في حين هناك أمكنة ثانية للعبور أيضًا وهي دينامية تحولت إلى سجل حي بكل ما نقله ، من الأحداث والتحولات لدى الأتراكِ والخزرِ والروسِ والصقالبة.

وقد وقف ابن فضلان في التقاطه لهذه الأمكنة على تصوير ما يقع وما يرى من وقائع وأخبار تخص اللامألوف من السلوك والعادات والمعاملات بينما غَضَّ النظرَ عن الوصف الجغرافي لهذه الأمكنة ومواقعها.

مثلما توقف الراوي عند المحن التي عاشها هو ومن معه في أمكنة معينة ، سواء ببعض المدن أو الأنهار من جراء معاملات أهالي وحكام تلك المناطق ، أو الطقس الذي لم يألفه ابن فضلان فنظر إليه بعين الرهبة والتعجب.

وداخل هذا المسار ، كان بُعد الزمن حاضرًا في أذن الراوي على مدى أحد عشر شهرًا ، مسجلاً تاريخ خروجه ووصوله ومكتفيًا بذكر عدد الأيام التي توقف عندها ، حتى أن بنية الزمن كانت حاضرة في بنيات السرد حضورًا متنوعا :

• «فأقمنا بالجرجانية أياما ، وجمد نهر جيحون من أوله إلى آخره ، وقد سمك الجمد سبعة عشر شبرًا ، وكانت الخيل والبغال والحمير والعجل تجتاز عليه كما تجتاز على الطرق وهو ثابت لا يتخلخل ، فأقام على ذلك ثلاثة أشهر ، ص. 83 .

• «وتطاول مقامنا بالجرجانية ، وذاك أنّا أقمنا بها أياما من رجب وشعبان وشهر رمضان وشوال ، وكان طول مقامنا من جهة البرد وشدته»، ص. 84 .

• «فلما انتصف شوال من سنة تسع وثلاثمائة أخذ الزمان في التغير وأخذنا نحن فيما نحتاج إليه من آلة السفر [...] وتزودنا الخبز والجاورس والنمكسوذ لثلاثة أشهر» ، ص. 86.

• «وكان وصولنا إليه [ملك الصقالبة] يوم الأحد لاثنتي عشرة ليلة خلت من المحرم سنة عشر وثلاثمائة ، فكانت المسافة من الجرجانية إلى بلده سبعين يوما»، ص. 113 .

هذه التحديدات المؤطرة للرحلة تعكس الوعي بها صفتها رسالة وتقريرًا ، وتؤسس للمبدأ الواقعي في النص ولصدقية الأحداث والمشاهدات .

إن رسالة ابن فضلان في المحصلة ، بكل أبعادها المتداخلة: الذات والآخر والفضاء، فضلا عن بنيات السرد والحكاية ... تطرح أسئلة تخص الرحلة السفارية ونصيتها والتأطير الديني الذي احتواها ، وشعريتها من حيث عناصرها الأدبية المتحقّقة بتفاوت

مع الأشكال الرحلية وأنواعـها وأيضًا خطاب المتخـيل المتشكل مما أفـرزته مشـاهدات الراوي من لا مألوف وعـجيب لدى الآخـر / الغير ، وبعض البنيات الصغرى الحافزة ، من بينها التنكر خوفا ، والحيلة ، والحوارات ثم التحذيرات والمشاعر المتنوعة.

هذه المعطيات وغيرها ، كانت صيغـا لتدعيم الشعرية وسبيلاً لانبِنَاء الرؤية وصيرورتها في سبيل تشكيل مرجع للمتخيل الأصلي بامتزاج مبدأين عامين في النص : مـبدأ واقعي يحضر عبر الأزمنة المحايثـة للأمكنة وبعض الأحداث ؛ ومـبدأ احتـمالي يتـمثل في المشاهدات والمرويات التي تحكي عن المحن وتشخيصها .

القسم الثالث
خـطاب المتخـــيل